قوى الإيمان وإغراءات السوق

بقلم أوليفيي مونجان
ترجمة عياش سلمان

لقد عمدت في الحلقة الأولى من هذا العدد، من أجل تفادي كل زيغ فرنسي خالص بشأن الفعل الديني، إلى استعراض الروابط القائمة بين الدين والسياسة في أوروبا الدنيوية وتم التركيز على الطابع الفريد من نوعه في الممارسات الدينية المعاصرة والتشديد، بعد الصدى الذي أحدثه خطاب راتسبون بينديغت السادس عشر، على ظاهرتين اثنتين: وهما الدور المتزايد في الوقت الحاضر للدين الإسلامي في أوروبا، وكذا التوتر القائم في أوروبا "المسيحية" نفسها بين الروح الكانطية" و"الشكلية" في البروتستانتية وكنيسة كاثوليكية عرفت سلطتها هشاشة كبيرة. ومن ثم تأتّى التوتر القائم بين كفاح في سبيل العلمانية وبين "تمجيد" القيم المسيحية. ولكن، كما تذكّر بذلك بلاندين شيليني-بونت منذ البداية، أصبحنا لا نعيش في الوقت الحاضر على وتيرة الأمة الفرنسية "اللائكية" أو أوروبا الدنيوية فحسب؛ بل أصبح الكوكب الديني يتجه نحو العولمة، وبذلك فنحن مجبرون على تصور المستقبل على أساس التطورات الأنثروبولوجية والاجتماعية التي ليست بالضرورة تطورات تعنينا وحدنا دون سوانا.

ومن أجل أخذ التطورات الكونية على الصعيد الديني في الحسبان فلا بد من استخلاص الدروس والعبر من الديمغرافية. وهذا ما يستوجب، مع نوع من المفاجأة، وضع معاينات غير متوقعة إلى حد ما. فإذا ما أيد التطور الديني في الصين فكرة العودة الشاملة إلى الممارسات الدينية، فإن الأرقام "العالمية" تبين، وهذا ما يذهل الأوروبيين، أن الدين الذي ستكون له الأغلبية في العالم في عام 2050 لن يكون الإسلام بل المسيحية، وأن البروتستانتية هي التي ستهيمن على الدين المسيحي. وبينما ظل يقدم منذ بضعة عقود من الزمن على أن الإسلام في انتشار مستمر في إفريقيا وفي غيرها من بقاع الأرض- وما زلنا نذكر الإسلام الأسود لفانسان مونتاي- فلا بد من الإقرار في الوقت الحاضر بأن المسيحية بصدد الانتشار على الخصوص في بلدان الجنوب، في إفريقيا السمراء وفي أمريكا اللاتينية أيضا. وبحسب موسوعة المسيحية العالمية فإن فردا إفريقيا من ضمن اثنين يدين بالمسيحية في الوقت الحاضر بيد أن الوضع كان إفريقيا واحدا من ضمن عشرة في عام 1990. ويدل ذلك بوضوح أن "مركز ثقل المسيحية، التي ستكون مع حلول عام 2050 ديانة ثلاثة أرباع الإنسانية، لن يكون جينيف وروما وأثينا وباريس ولندن ونيويورك بل سيكون كينشاسا وبيونس إيرس وأديس أبابا ومانيلا". ويجدر القول زيادة على ذلك، من أجل تقدير الظاهرة حق قدرها، أن الفارق الحالي بين المسيحيين والمسلمين (ملياران من المسيحيين مقابل 1,2 مليار من المسلمين) ليس بصدد التناقص.

ولكن ينبغي تجاوز هذه المقاربة الديمغرافية للعولمة والتساؤل قبل كل شيء عن ظاهرة خاصة، وهي ظاهرة العدد الذي لا حصر له ولا عدّ من الكنائس الإنجيلية التي تحكم حركية البروتستانتية. وفي سياق مجلة هيرودوت التي خصصت في عام 2005 ملفا اختارت له عنوان "المبشرون الإنجيليون يقتحمون العالم"، فإن اختيار نشر مقالات موجهة لفهم أسباب هذا التزايد المذهل عبر أرجاء المعمورة يستهدف التذكير بأن "العولمة" الجارية لا تقتصر فقط على الجانب الاقتصادي بل إن لها بعدا دينيا أيضا. أجل، إن العولمة التي تعتبر ظاهرة تاريخية وجزءا لا يتجزأ من أشكال القطيعة التكنولوجية، وبروز رأسمالية لا علاقة لها بالرأسمالية التي كان ماركس قد قام بتحليل تناقضاتها، والدخول في عالم ما بعد الصناعة ينبغي أن تستوعب أيضا على الصعيد السياسي (ما هو حجم التقليص في

مساحة الدولة؟) وعلى صعيد الهوية والهجرة والثقافة... والدين. كما لا يمكن فصل تكاثر عدد الكنائس الإنجيلية (انظر كشف المصطلحات الذي يلي هذه المقدمة، ومقالات أندري كورتن وجيل سيرافين وروث مارشال) عن العولمة المعاصرة. وبالفعل، فإن هذه العولمة تتميز بهيمنة الوفرة من شتى الأنماط، كما تتميز بحركة من "الخصخصة" (في مجال الاقتصاد والسياسة والهوية...) يساهم فيها ظهور الكنائس الصغيرة في أمريكا اللاتينية أو في إفريقيا السمراء (الكنائس التي قد تبدأ مصادر إلهامها من أنصار عيد العنصرة المقربة من الميثودية لتصل إلى أنصار عيد العنصرة المحدثين والمقربين من الطوائف المبتدعة أو من أروقة المتاجرة في العقيدة) مساهمة مزدوجة. أولا، تكتسي الخصخصة الدينية طابعا اقتصاديا، إذ أن الكنيسة الصغيرة هي عبارة عن مؤسسة صغيرة (يمكن أن تكون منتمية إلى شبكة ما ومرتبطة بأقلية تعيش في الشتات) والمرشد هو عبارة عن رجل أعمال. ولكن الأهم هو أن الثروات المادية لمعتنق الديانة هي مقابل ما يمنحه للرب من الناحية الروحية: وهكذا تصبح الرفاهية الاقتصادية والروحية أمرين متلازمين. ثم، إن هذه الخصخصة تكتسي بعدا نفسيا، إذ غالبا ما يوفق القس الموهوب بالكارزمية في لمّ شمل قبيلة أسرية صغيرة حوله. ولكن بواطن الخيال والدوافع الخاصة بهذه الممارسات التي تتصل اتصالا وثيقا بشبكات تتجاوز حدود الوطن الواحد في أغلب الأوقات، تتعدى البروتستانتية؛ وكما بينّ باتريك هايني ذلك، فإننا نشهد أيضا بصدد الإسلام نفسه، البعيد عن النزعة الإسلاموية، ظاهرة بروز هذه المؤسسات الصغيرة. ويسمي المؤلف هذه الظاهرة بظاهرة "إسلام السوق".

ولم يصبح المجال الاقتصادي يوفر للأشكال الجديدة للتدين المفرط الدعم الملموس من السوق فحسب، بل أصبح يوفر لها أيضا عناصر فكرها من خلال إعادة صياغة الإسلام ضمن مفردات تحقيق الذات وبث عناصر الأخلاقيات المتزمتة فيه. ونجمت عن هذه المبادلات لاهوتية الازدهار المبشرة بفخر المسلمين الجديد الذي لم يصبح يتحقق عن طريق المواجهة أو تأكيد التدين التفاخري بل من خلال الأداء الناجع والتنافسية.

ومع ذلك فإن المؤسسة الدينية الصغيرة تقوم بدور اجتماعي وطبي لا تقوم به (أو لم تعد تقوم به) دولة الرفاهية والمرافق العمومية. وفي هذا السياق فإن المؤسسة الصغيرة من النموذج الإنجيلي تقوم بعملها على الأجساد التي أنهكتها العواقب الكارثية للتوزيع السيئ للاقتصاد العالمي. ولقد ورد في أعمدة موضوع تمت صياغته عن كينشاسا مؤخرا تصوير للاستعادة "الروحية" للجنود من الأطفال الذين تتهمهم أمهاتهم بأنهم سحرة ومحرضون على الشر. وتقوم الكنيسة بإصلاح ما فسد في الجسد بواسطة الموسيقى والرقص وتهييج الأعصاب وبالكلمة الإلهية وذلك باستعمال العنف أيضا. كما تقوم بتغذية رؤية قيام الساعة المنذرة بنهاية العالم واحتمال بعثه مرة أخرى. وإذا كان ثمة قصة (ثلاث موجات بحسب أندري كورتن) وبعض المرونة في هذه الكنائس الجديدة، فإن انتشارها تحكمه عاطفة تجنح إلى العيش في عالم يدفع فيه ثمن الفقر والبؤس الجسدي والنفسي غاليا ويسبب المعاناة والألم. ويجب أن تقدم المساعدة إلى الأجساد وهدايتها وتحويلها وجعلها تقتنع بأنه بالإمكان القضاء على الشر، وعلى ما يجعلنا نرى الشر في عقولنا، بفضل التوبة والهداية والنفس الطيبة. ولهذا السبب نرى أن المعجزة تشغل مكانة حاسمة ("إذ أن المعجزة تمثل بالنسبة للدين ما تمثله الحالة الاستثنائية بالنسبة للقانون").

ومن الملفت للنظر أن هذا البعد الديني للعولمة ظل خافيا عموما نظرا لكونه يحمل دلالة سياسية. وعلى ضوء ما يوضحه جان بيار باستيان في هذا المقام بخصوص أمريكا اللاتينية، فإن وزن هذه الكنائس

والإضعاف المتزامن للكنيسة الكاثوليكية والتعددية الدينية التي كانت محصلة هذه التعددية غيرت مفاهيم العلمانية وتطور العلاقات التي تربط الدولة بالدين. غير أن هناك جانبا سياسيا آخر يحمل دلالة "شاملة" جدا: وهي كون موطن الخيال الإنجيلي يتقاسمه بصورة متناقضة جناح المحافظين الجدد الأمريكيين الذين يقدمون في الغالب على أساس أنهم أسياد العالم الروحيون. ولا يمكن إذن حصر موطن الخيال الإنجيلي هذا، فيما يخص القوة والسوق في آن واحد، في تقليد ديني قديم ما دامت الكنائس الصغيرة، في شتى أنحاء العالم، تعتمد عليه وعلى هذا الاحتياطي من المدلول الروحي وتلك النظرة المانوية القيامية من أجل مواجهة الآلام التي يعانيها الجسد بسبب داء تقوم أمريكا بنشر جرثومته إلى حد كبير. ومن خلال ديانة السوق دخل الخير والشر في نزال له أول وليس له آخر في أرجاء المعمورة كافة. ومن الأهمية بمكان القيام، كما يقترح علينا بيكولا ماسون ذلك، بإدراك دور المنظمات غير الحكومية، وبشكل أوسع المنظمات غير الحكومية الدينية، التي تعتبر أحد العوامل المساعدة على تكاثر عدد الكنائس الصغيرة الإنقاذية.

بقلم أوليفيي مونجان

ترجمة عياش سلمان

Revue des revues, sélection de décembre 2007

Olivier Mongin : « Puissances de la foi, séductions du marché »
article publié initialement dans *Esprit*, mars-avril 2007.

Traducteurs :

Anglais : Vandana Kawlra
Arabe : Selmane Ayache
Chinois : Yan Suwei
Espagnol : Eréndira Reyes
Russe : Ekaterina Belavina

Droits :

© Olivier Mongin pour la version française
© Vandana Kawlra /CEDUST de New Delhi
© Selmane Ayache /Bureau du Livre de l'Ambassade de France en Algérie pour la version arabe
© Yan Suwei /Centre culturel français de Pékin pour la version chinoise
© Eréndira Reyes /Institut français d'Amérique latine pour la version espagnole
© Ekaterina Belavina /Centre culturel français de Moscou pour la version russe